سعيد عقل وإيمان الخطيب

سهيل إدريس*

I ـ في هذه الأيام التي نتابع فيها استمرارَ شارون في ارتكاب جرائمه في أرض فلسطين، لا يسعنا إلاّ أن نتذكّر أيامَ صبرا وشاتيلا، حين اجتاحت جيوشُه أرضَ لبنان عام ١٩٨٢.

وحين نتذكّر تلك الأيام لا نستطيع أن نَنْسى موقفَ تلك الفئة من اللبنانيّين الذين هلّلوا للاجتياح الإسرائيليّ ورحّبوا بالسفّاح. ولا ننسى خاصةً صورةَ ذلك الشاعر اللبنانيّ سعيد عقل الذي ظهر في تلك الفترة على شاشة التلفزيون وهو يرحّب بالاجتياح الإسرائيليّ، ويصف بيغن بأنّه بطلٌ أتى ينقذ لبنانَ من «العنصريّة الدمويّة الفلسطينيّة،» ويناشد جميعَ اللبنانيّين أن «يرحّبوا بالجيش الإسرائيلياني» ويقاتلوا معه لأنّه «جيش خلاص للبنان وليس جيش غزو... وكل مين يقول إنّو جيش غزو لازْمو قَصّ راسْ...» وبسط سعيد عقل صورةَ صفحةٍ من جريدة **لبنان** التي كان يُصْدرها آنذاك وقد رحّب فيها بدخول الجيش الإسرائيليّ إلى لبنان، وأَرْدف أنّه لو كان يَمْلك قوّةً عسكريّةً لقام الآن ليحارب مع هذا الجيش.

وحين سُئِلَ سعيد عقل عن المذابح التي ارتكبها السفّاح شارون في صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢ أجاب: «أنا مع قَتْلِ مَنْ قاتلنا وقَتَلَ أهلَنا، وأعني بهم الفلسطينيّين... وإنّ الكلام على مقتل عدد من اللبنانيّين أيضًا في مجازر صبرا وشاتيلا ليس صحيحًا؛ فهذه دعاية فلسطينيّة.»[1]

وبالمناسبة، كنتُ تلقّيتُ نسخةً من مقالة بعنوان «مَنْ يحاسب سعيد عقل؟» كَتَبَها الدكتور ياسين سويد، أمينُ عام الهيئة الوطنيّة لمقاومة التطبيع في لبنان، بعث بها إلى عدّة صحف لبنانيّة وعربيّة فامتنعتْ في معظمها، مع الأسف، عن نشرها. وفيها يَشْجب موقفَ سعيد عقل حين استَقْبل بالتهليل اجتياحَ الجيش الشارونيّ لوطنه.

إنّ مواقف سعيد عقل لا تَخْرج من إطار مرض نفسيّ مستفحل فيه وفي بعض أتباعه الذين لم يحظَوْا يومًا في حياتهم سوى بشرف مدح الصهاينة، والذين اعتبروا محتلّ بلدهم منقذًا وبطلاً يجب أن يُنْصب له تمثالٌ في وسط بيروت كما روى الدكتور سويد. حتى إنّ سعيد عقل، في جواب على سؤال سألتْه إيّاه **الشراع** حول الدعوة إلى قتال «إسرائيل» التي تحتلّ جزءًا من لبنان، قال: «سعيد عقل يكون جبانًا إذا انخرط مع الجبناء الداعين إلى مقاتلة إسرائيل.»

وهل يَحْسب عاقلٌ في العالم الجبانَ إلاّ مَنْ تآمر على وطنه وشعبه وفتح صدرَه مرحّبًا بالمحتلّ؟!

وهل يكون إنسانًا سويّاً من يَجْعل أقصى طموحه أن يُلقي خطابًا في الكنيست الإسرائيليّ، كما فعل أنور السادات؟ فسعيد عقل توسّط، عام ١٩٨٢، وبعد مقابلته الشهيرة مع التلفزيون الإسرائيليّ، الكاتبَ الإسرائيليَّ أهارون أمير كيْ يلقي خطابًا في الكنيست. وعندما جاء الردّ سلبيّاً، إذْ لا يحقّ لغير رؤساء الدول إلقاءُ خطاب هناك، بَذَلَ ما في وسعه كي يُلقي خطابًا على جبل الهيكل كما فعل السيِّئُ الذكر اللورد بلفور صاحبُ الوعد المشؤوم. إلاّ أنّ أمله في الوصول إلى هذا الشرف قد تلاشى مع اغتيال بشير الجميل، إذ كان مقرّرًا أن يلقي سعيد عقل خطابه بعد أيام. وكما يَذْكر سلمان مصالحه في مقاله المعنون «سعيد عقل خطيبًا في الكنيست؟ فإنّ «القِران الذي عمل سعيد عقل جاهدًا على عقده بين الفينيقيّة والكنعانيّة، بين لبنان وإسرائيل، دُفِنَ في لحظةٍ واحدةٍ تحت حطام المقرّ في الأشرفيّة.»

II ـ كنتُ أزُورُ معرضًا للكتاب أقامته «الرابطة الثقافيّة في أنطلياس» في الشهر الماضي حين سمعتُ مذيعًا في المعرض يرحّب بـ«شاعر لبنان الكبير» سعيد عقل، ويصفه بأنّه فوق ذلك «شاعرُ العرب.» وقد عاتبتُ يومذاك أمينَ عام «الرابطة» الصديق عصام خليفة على هذا الترحيب، واقترحتُ عليه أن يضيف إلى صفة شاعر لبنان وشاعر العرب سعيد عقل عبارةَ «وشاعر الجيش الإسرائيلياني.»

---

* ـ أديب ومترجم ومعجميّ وناشر من لبنان. مؤسِّس مجلة الآداب ورئيس تحريرها (١٩٥٣ ـ ١٩٩١). وهذا فصل صغير من الجزء الثاني من مذكّراته، **ذكريات الأدب والحبّ**، التي تصدر قريبًا عن دار الآداب.

١ ـ مجلة **الشراع**، ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥.

قال عصام خليفة: فهمتُ عليك.

ورفضتُ طبعًا أن أصافح الشاعر الذي كان قد رحّب بشارون وظهر في إحدى حلقات قناة «الجزيرة» وهو يهلّل له.

ولم يكن من العسير أن أتذكّر ماضيَ هذا الشاعر وموقفَه من معاداة العرب والعروبة، وأن أثْبت أنّ كل قصائده التي تحدّث فيها عن القدس والشام ومكّة لم تكن إلاّ ضروبًا من النفاق والكذب. وكثيرون يَذْكرون أنّه قد ندم على تلك القصائد وتمنّى لو لم ينشرها.

III ـ وللحقيقة أقول إنّ صهيونيّة سعيد عقل ليست جديدة وعارضة، وما يصرّح به ويقوله على الدوام قديم متأصّل في نفسه. ولذا كانت معركة الآداب معه قديمة كذلك. واليوم إذ أكْتب هذا الفصلَ عن سعيد عقل تعود بي الذاكرة إلى العام ١٩٥٥ عندما كَتَبَ أولَ هلوساته: «للبنان رسالةٌ فذّة في العالم تخوّلنا لبنةَ العالم.» فردّ عليه الأديب أحمد أبو سعد، أحدُ مرافقي الآداب في مسيرتها الطويلة، بمقالةٍ أُولى بعنوان «خرافة الإشعاع»[1] عزا فيها ما ينحو إليه سعيد عقل إلى «مرض الفُطام» الذي يَشْرحه على لسان طبيبٍ نفسيّ بأنّه «مرض يصيب عاطفةَ الفرد فيَمْنعه من الوصول إلى درجة النضوج العاطفيّ، فيظلّ ملتصقًا بأمّه (لزّ أمّه) يستمدّ منها كلَّ شيء.» لا بل إنّ أحمد أبو سعد يَعْتبر أنّ سعيدًا يمارس الشعوذةَ والتنويمَ المغناطيسيّ، ويمرّر جملتَه بتهكُّم بيِّنٍ يَكْشف في الوقت نفسه ويدين ويوجّه إصبعَ الاتّهام مبكّرًا عندما يقول: «وهلاّ اقتنعتَ معي يا سيدي القارئ بأنّ كلمة الشعوذة ليست فرْية مني جلبتُها معي من بيت أبي، إنّما من فمكِ أدينكِ يا إسرائيل؟!»

ويوغل أبو سعد في تهكُّمه أكثر فأكثر عندما يتحدّث عن المقدّمة التي صدّر بها سعيد عقل ديوان **بوح** للسيدة إدفيك جريْديني شيْبوب، فاعتبر المقدّمة «أقربَ إلى الكلام الفارغ منها إلى مقدّمة تنير لنا الكتابَ ثم لا تَقْتصر على الدعوة للمصدِّر والتبجُّح والنفج [نفج الأرنب أو اليربوع: أثار وعدا. ونفج الإنسانُ نفجًا: فخر بما ليس عنده].»

ولقد كان أبو سعد مستشرفًا حقّاً لما ستؤُول إليه هلوساتُ عقل. ففي مقالة ثانية كانت ردّاً على د. عبد القادر القطّ يقول بعد أن يتحدّث عن الشعر في العراق وسورية ومصر: «أمّا لبنان، فواحسرتا على لبنان! فتفشّطُ وعنجهيّةٌ وتغنٍّ بالإشعاع، وأرجو أن لا يضطرّني أحدٌ إلى نشر الغسيل أكثر من ذلك، فإنّ لي في هذه الأجيال الصاعدة لأملاً يقف في وجه هذا اليأس ويَحُول بيني وبين أن أقطع الرجاء. ما كنتُ يومًا متذمِّرًا، ولا أنا فريسة للكراهية. أنا مِنْ أشدّ المؤمنين بالحبّ، وإنّ حبّي لبلادي لهو الذي دَفَعَني إلى الكتابة وحثّني على إطلاق هذه الصرخة بوجه الشاردين العابثين المفْترين ليكفُّوا عن تضليلهم ويرجعوا عن غوايتهم، ولأكشف للمُقْبلين من الأجيال فراغ مَنْ تقدّمهم وإفلاسَهم.»[2] وللحقيقة أقول إنّ أحمد أبو سعد استطاع باكرًا أن يَكْشف ادّعاءَ المدّعين، ويعرّي تبجُّحَهم الذي لم يَجْلب للبنان سوى الخسائر والويلات.

IV ـ لم تكن معركةُ الآداب مع سعيد عقل آنيةً أو عابرة ـ كما أشرتُ ـ بل كانت وظلّت خصومةً فعليّةً تعود إلى التزام الآداب معركةَ المصير القوميّ، وإلى التزام سعيد عقل العداءَ لقضايا الأمّة والدعوةَ الدائمةَ لحياد لبنان واعتباره «قِطْعةً سَمَا.» ولازلتُ أذْكر ذلك اليومَ الذي جاءني فيه الصديقُ الراحل، الشاعرُ الكبير نزار قبّاني، أيامَ العدوان الثلاثيّ على مصر، وهو يَحْمل صحيفةً يعطيني إيّاها قائلاً: «خذ اقرأْ ما كتبه سعيد عقل عن العدوان الثلاثيّ على مصر.» ومَنْ يَعْرف أو سيتعرّف على تاريخ سعيد عقل لن يفاجأ بأنّه داعية للاستعمار ولأعداء الأمّة العربيّة مِنْ يوم كان. ولا بأس أن يطّلع القارئُ على موقف سعيد عقل من العدوان الثلاثيّ على مصر: «علام هذه الضجّة الكبرى، هنا، في لبنان؟ لقد غُزِيتْ مصر، فما شأنُنا بذلك نحن؟ أكلّما حدث في أنحاء المعمورة حادث، تحرّكتْ بعضُ العناصر في لبنان؟ لقد أَمّمتْ مصرُ قناةَ السويس، فخرقتْ بذلك الاتفاقات الدوليّة. فلتصفَّ الحسابَ بينها وبين الدول المعنيّة، ولتدعْنا وشأننا: فنحن هنا في لبنان نريد الهدوءَ والسلام، هنا في لبنان، بلدِ فيثاغورث وهوميروس، لبنان...»

وقد أثبتُّ هذا المقطع لسعيد عقل في روايتي **أصابعنا التي تحترق** (ص ٢٧٥)، وعلّقتُ يومها عليه قائلاً: «سنَجُّ أولئك الذين يَعْتقدون أنّهم يُحْيون لبنانَ حين يريدون عزلَه على هذا النحو. لقد أصبحتُ أشكّ في إخلاصهم لوطننا. وبتُّ أميلُ إلى الظنّ بأنّهم مدفوعون دفعًا إلى اتّخاذ هذا الموقف الذي يَقْضي على لبنان لا محالة...»

وأودّ أن أشير إلى أنّ الحبيب نزارًا حَمَلَ إليَّ مع مقالة سعيد عقل الآنفة الذكر قصيدتَه «رسالة جنديّ من جبهة السويس» التي أُعيد نشرَ مقطع منها هنا لعمقِ دلالته مقارنةً بموقف الشاعر «اللبنانيّ»:

ماتَ الجرادْ..

أَبَتاهُ، ماتتْ كلُّ أسراب الجرادْ

لم تبقَ سيّدةٌ..

ولا طفلٌ..

ولا شيخٌ قعيدْ

في الريفِ، في المُدُن الكبيرةِ،

في الصعيدْ..

إلاّ وشاركَ يا أبي

١ ـ الآداب، العدد السابع، تموز ١٩٥٥.

٢ ـ الآداب، العدد التاسع، أيلول ١٩٥٥.

في حَرْق أسراب الجرادْ

في سَحْقِهِ،

في ذبحهِ حتى الوريدْ

هذي الرسالةُ، يا أبي، من بور سعيدْ

من حيث تمتزجُ البطولةُ بالجراح وبالحديدْ

مِنْ مصنع الأبطال أكتُبُ يا أبي..

مِنْ بور سعيدْ..

V ـ وفي مناسبة الحديث عن ترحيب سعيد عقل باجتياح الجيش الصهيونيّ للبنان، لا يسعنا إلاّ أن نتذكّر موقفَ شاعر لبنانيّ آخر هو المرحوم خليل حاوي الذي روت الصحفُ أنّه يومَ الاجتياح لم يتحمّل رؤيةَ الصهاينة يغزون لبنان على مرأًى من الأنظمة المستسلمة، فما كان منه إلاّ أن تناول بندقية صيدٍ كان يقتنيها وأَطْلق منها رصاصةً على رأسه فخرّ قتيلاً، فكان من أوائل الذين سقطوا احتجاجًا على اجتياح العاصمة العربيّة الأولى بعد القدس وعلى الضعف الذي وصلتْ إليه الأمّةُ في مقابل هذا الاجتياح.

أليست المقارنة بين موقفيْ شاعرينْ من لبنان، يَنْتمي أحدُهما إلى فكرة الانبعاث العربيّ، ويصرِّح الآخرُ بعدائه المكشوف للعرب والعروبة، أليست هذه المقارنة ذاتَ دلالةٍ عميقةٍ؟ ألا يستحقّ موقفُ الشاعر خليل حاوي وسامَ التقدير، بينما لا يشكّل موقفُ سعيد عقل إلاّ وصمةً في جبين الشعر اللبنانيّ والعربيّ؟

VI ـ ولا أستطيع أن أنهي هذا الفصل عن الاجتياح الإسرائيليّ من غير أن أتذكّر ذلك المشهدَ الذي رأيتُه بأمّ عيني يومَ دخل الجيشُ الإسرائيليّ إلى أحياء بيروت ووصل في توغُّله إلى محلّة «عين التينة» التي كنّا ومانزال نسكن في إحدى بناياتها. فقد خرجنا ذلك اليومَ على أصوات جنود إسرائيليّين يطلبون من السكّان أن يَهْبطوا إلى الشارع حاملين ما كان لديهم من سلاح خفيف. ثم سمعنا إطلاق نار، وسمعنا صراخًا، وأنينًا طِفْلاً.

كانت الطفلة إيمان الخطيب، التي كان أهلُها الفلسطينيُّون يَقْطنون في الطابق الخامس من بنايتنا، قد رَجَتْ حارسَ البناية «أبو سميح» أن ترافقه لإطفاء مولِّد الكهرباء. وحين سمع أبو إيمان صوتَ ابنته الباكية هرع إلى السّلم، ثم سمعنا صراخًا رَجُلاً. ولمّا توقّف الرصاص نزلنا من بيوتنا. كان أبو سميح مرميّاً على الدَّرج، يَحْمل إيمان بين ذراعيْه. وكانت إيمان تودِّع بيروت، وهي تَقْضم تفاحةً ملوّثةً بدمها ودمه. وكان أبو صالح (أبو إيمان) مصابًا، لكنّه لم يمت شأنهما. وكان يَنْحني فوق إيمان، ويبكي.

كنتُ أتذكّر، ولا أزال، الطفلة إيمان كلّما استعدتُ مشهد محمّد الدّرّة وهو يَسْقط شهيدًا في حضن والده في فلسطين، والوالد يلوّح بيده محاولاً منعَ الجنودِ الإسرائيليّين من قتل ابنه، في ذلك المشهد الذي نشرتْه شاشاتُ العالم كلُّها يومذاك. ولم أشعر بالانتقام لإيمان الخطيب ومحمد الدّرّة إلاّ يومَ رأيتُ جيشَ شارون يَنْسحب من الجنوب تحت ضربات المقاومة التي حقّقتْ أوّلَ نصر حقيقيّ على العدوّ الصهيونيّ، مُثْبتةً أنّ «ما أُخذ بالقوّة لا يُستردّ بغير القوّة.»

بيروت

من موادّ العدد القادم من الآداب

■ ملف الرقابة العربية (١): اقرأ في هذا العدد الجزء الأوّل من ٤ ملفّات تتناول الرقابة في المغرب وسوريا ومصر لبنان.

اشترك، كي يصلك العدد!